مركز نماء للبحوث والدراسات
Namaa Center for Research and Studies
نماء وانتماء

namacenter

أوراق نماء

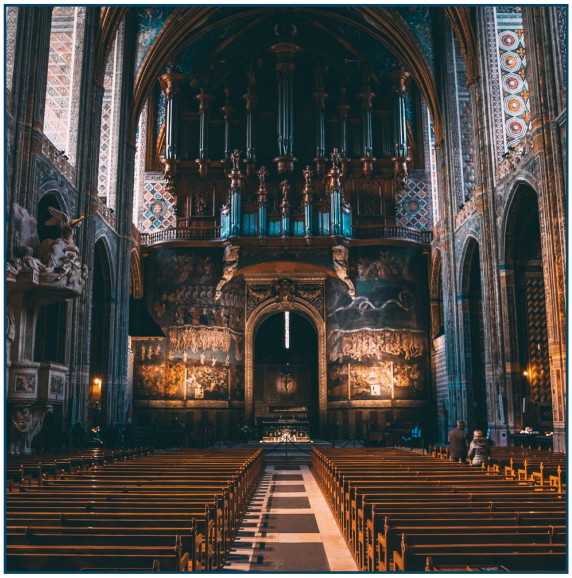

النقد التاريخي لصلب السيد المسيح عليه السلام

علي زلماط

النقد التاريخي لصلب السيد المسيح عليه السلام

د. علي زلماط

أستاذ سلك الابتدائي، وباحث الدكتوراه، شعبة الدراسات الإسلامية، تخصص مقارنة الأديان، كلية الآداب والعلوم الإنسانية-سايس- فاس

ali.zalmat@gmail.com

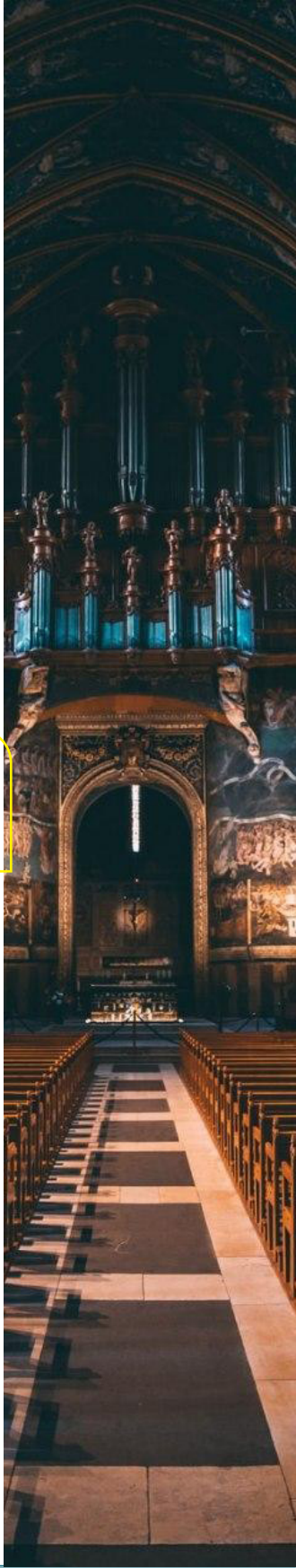

«يهدف هذا البحث إلى دراسة حدث صلب النبي عيسى عليه السلام، حسب ما جاء في الرواية الدينية المسيحية، من خلال النص الديني المسيحي المعتمد، بواسطة المنهج التاريخي النقدي، وذلك بإخضاعه والوثيقة التي ضمنته للنقد الخارجي والداخلي. مع ضرورة استحضار التصور الإسلامي لمفهوم المعجزة والأعمال الخارقة، لكون حدث الصلب عند المسيحيين ليس حدثًا طبيعيًّا».

الكلمات المفتاحية: الصلب - المسيح - النقد التاريخي - المعجزة - هيلانة - خشبة الصلب.

مقدمة

جدير بالذكر أن عقيدة الصلب من العقائد الأساسية التي يعتقد بها المسيحيون، إلى جانب عقيدة القيامة وألوهية المسيح وغير ذلك. بل إنها تعد الأصل والأساس، حيث لا يمكن تصور الديانة المسيحية ذات التقليد الكنسي المعروف من غير هذه العقائد، حتى إنه إذا ذُكِرت المسيحية سبق إلى ذهن السامع بنوة المسيح للإله وصلبه وقيامته بعد موته.

والمتفق عليه بين مختلف دارسي وناقدي الديانة المسيحية أن هذه العقائد لم تكن ذات أهمية إلا بعد انقضاء زمن السيد المسيح بسنوات، بعد أن تم الإضفاء عليها القداسة، وتقديمها في صورة لاهوتية وثنية تتوافق والمعتقدات الوثنية المنتشرة إذ ذاك في مختلف البقاع، التي من بينها الأراضي التي سيطرت عليها الإمبراطورية الرومانية. بل قُدمت المسيحية في قالب وثني من قبل المبشرين الأوائل، اعتقادًا منهم أنه الطريق الأسلم والأسرع لتثبيت الدين الجديد في قلوب الناس.

وقد قام الدارسون والناقدون والمؤرخون بدراسة الديانة المسيحية، دراسة تفصيلية، شملت التاريخ الكنسي، والتاريخ الديني المسيحي، والكتاب المقدس والنصوص الدينية الأخرى، فاستنتجوا أنها ليست تلك الديانة التي بعث بها النبي عيسى عليه السلام، وإنما هي عقائد تشكلت بعده على يد بولس الطرسوسي، وتطورت على يد رجال الكنيسة بعده. فقد ناقشوا هذه العقائد من وجهة نظر لاهوتية، كما ناقشوها في إطار النقد النصي، وكذلك بواسطة النقد التاريخي.. فكانت كلها تفضي إلى فساد اعتقاد القوم، وكذب نصهم الديني، على الأقل في هذا الجانب.

ومسألة صلب المسيح عليه السلام من تلكم العقائد التي تم الاهتمام بها منذ القدم لاهوتيًّا وتاريخيًّا؛ لأنها تتضمن قتل شخص يجمع بين الناسوت واللاهوت، وهي إشكال لا زال الجدال حولها إلى يومنا هذا، ولا يزال المؤمنون يدافعون عنها، وإن كان هذا الحدث في حد ذاته من وجهة نظر التاريخ يفتقر إلى أدلة قوية تثبته وتؤكده، وهذا هو موضوع هذه الورقة، أي نقد حدث صلب المسيح بواسطة المنهج التاريخي.

✸ إشكالية الموضوع:

نحاول من خلال هذه الورقة الإجابة عن إشكالية وقوع حدث الصلب من عدمه بين النص الديني والنقد التاريخي له، وتتفرع عنها عدة أسئلة أهمها:

١. كيف نقلت الأناجيل الأربعة حدث الصلب؟
٢. ما مدى توافق الأناجيل في رواية تفاصيل حدث الصلب؟
٣. ما موقع الكتب والمدونات التاريخية من هذا الحدث؟
٤. إذا كان الحدث في جوهره ليس حدثًا طبيعيًّا، بل معجزة خارقة، فما موقف العقل الإسلامي منه؟

✸ أهداف الموضوع:

نهدف من خلال هذه الورقة إلى:

١. تنبيه القارئ إلى أهمية النقد التاريخي للصلب على النقد اللاهوتي، إذ إنه يستند على أدلة تاريخية ثابتة وواضحة، في حين أن الثاني يغلب عليه الجدل اللاهوتي، وإن كان بدوره يستند على أدلة عقلية.

٢. ضرورة الاعتماد على النقد التاريخي (الإسلامي) فيما

يخص الأحداث الدينية التي تندرج ضمن المعجزات والخوارق الطبيعية، حتى نستطيع أن نميز بين المعجزة والأعمال السحرية.

٣. دعوة الباحثين الأكاديميين إلى البحث في هذا الموضوع، يجمع بين التصور الإسلامي للنبي عيسى عليه السلام وحياته، وبين النقد التاريخي للأحداث المنسوبة إليه.

وقبل الخوض في دراسة هذا الحدث، يكون من الأجدر الإشارة إلى مفهوم المنهج التاريخي وأصوله وأسسه، التي تُدرس في ظل الوثيقة أو الحدث الذي له صفة دينية، أو غير دينية. وإنما ركزنا على الصفة الدينية، لكون الصلب ليس حدثًا عاديًا وحسب، بل يُعد حسب ادعاء القوم معجزة خارقة للعادة، والمسلمون في هذا الأمر لهم ضابط صارم في قبول ورفض مثل هذه الأخبار، ولذا تكون هذه الورقة جامعة بين النقد الإسلامي والغربي لهذا الحدث البارز في التاريخ الديني المسيحي.

✸ المنهج التاريخي النقدي: المفهوم والأصول.

نعرف المنهج التاريخي في إطار علم الأديان (المقارنة) بالمنهج الذي يدرس نشأة وانتشار ديانة ما والظروف التي واكبت مراحلها ونقد مصادرها الأساسية من حيث صحة مضامينها، ومن صحة نسبتها إلى أصحابها. أي أن الدراسة كلها قائمة على تحقيق هدفين اثنين وهما: أولًا: تأريخ الدين من حيث النشأة والانتشار وجميع الظروف التاريخية والاجتماعية التي واكبت كل مراحل الدين المختلفة. ثانيًا: دراسة فحصية نقدية لمصادر الدين الأساسية من حيث صحتها وصحة مضمونها وصحة نسبتها إلى أصحابها، وذلك بالاستعانة بالمدونات والمصادر التاريخية والأبحاث الأركيولوجية والعلوم المساعدة.

وبما أن حدث الصلب حدث ديني له قيمة ورمزية لدى المسيحيين في جميع بلدان العالم وعلى مر التاريخ، فإن دراسته بواسطة المنهج التاريخي لا تختلف عن دراسة النص الديني أو الدين بهذا المنهج. ذلك أنه حدث يُفترض أنه شوهد من قبل الناس، وتناقلت أخباره بواسطتهم، ودُوِّن في المدونات، وحُفظ إلى أن وصل إلينا. وهذا يذهب بنا إلى إخضاع الوثائق والشهادات إلى النقد التاريخي، عبر النقد الخارجي والداخلي.

إذ إن النقد الخارجي للوثيقة أو النص الديني أو الشهادة التاريخية، بدوره يمر عبر مرحلتين، وهما: نقد التصحيح أو التحصيل، ونقد المصدر. فنقد التصحيح هو تصحيح الوثيقة من أخطاء التغيرات التي تشمل عليها.[1] ونقد المصدر يقصد به التأكد والتثبت من مصدر الوثيقة أو النص أو الشهادة، وذلك بتحديد هوية الكاتب، وزمن كتابة الوثيقة، ومكان كتابتها، وتحديد المكان الذي كتبت فيه، ثم تحديد طرق تداولها وانتقالها إلى أن وصلت إلينا.

أما النقد الداخلي فهو «مجموعة من العمليات التي يستخدمها الناقد في فهم محتوى الوثيقة، وتقدير الظروف التي أحاطت بكتابتها.[2] وينقسم هذا النقد إلى نقد التفسير ونقد الدقة والأمانة. فنقد التفسير تكمن مهمته في فهم النص في ذاته، ودراسة مضمونه دراسة تحليلية لغاية أساسية، وهي تحديد الفكرة الأساسية أو الحقيقية للمؤلف أو الكاتب.[3] ونقد الدقة والأمانة تكمن مهمته في النظر في أهلية الكاتب فيما ينقله من حيث أمانته وقوة ضبطه.[4] ثم تأتي مرحلة «المقابلة»، وهي مقابلة الشهادات الواردة في الوثائق ببعضها، وهي كما قال الدكتور يوسف الكلام:

(١) يوسف الكلام، تاريخ وعقائد الكتاب المقدس بين إشكالية التقنين والتقديس، دار الصفحات، دمشق سورية، ط١، ٢٠٠٩، ص: ٥٢.

(٢)محمود قاسم، المنطق الحديث ومناهج البحث، مكتبة الأنجلو المصرية، ط ٢، تاريخ كتابة المقدمة: ١٩٥٣، ص ص: ٣٦٧-٣٦٨.

(٣) انظر: عبد الرحمن بدوي، النقد التاريخي، «المدخل إلى الدراسات التاريخية»، لأنجلوا وسينوبوس، الناشر: وكالة المطبوعات، الكويت، ط٤، ١٩٨١، ص: ١١٢.

(٤) انظر: المرجع السابق، ص: ١٢١.

تعد ذات أهمية كبرى في مراقبة مدى صحة الشهادات. ولا تكون هذه المقابلة إلا ضمن وثائق مستقلة، كما يمكن مقارنتها بالمصادر التاريخية الأخرى، أو القوانين الفيزيائية والميتافيزيقية والأخلاقية.[1]

وهذه الأسس هي نفسها التي وظفها المسلمون في نقدهم للنص الديني على أساس الشك في أهلية الناقل للنقل ثم في المنقول نفسه.[2] أي الشك في السند والمتن معًا بتعبير علماء الحديث النبوي الشريف. وقد طبقوا هذا المنهج في دراساتهم للنصوص الدينية اليهودية والمسيحية وحتى الأديان الأخرى، وكذلك النصوص والأحداث التاريخية.

✸ أولاً: أسفار العهد الجديد (الأناجيل الأربعة)

تعد الأناجيل الأربعة (متى، مرقس، لوقا ويوحنا) المصادر الوحيدة التي أرَّخت لحدث صلب المسيح عليه السلام بالتفصيل من بين أسفار العهد الجديد. وهي بهذا تكون قد قدمت أربع روايات لحدث واحد كما سيأتي بيانه وتوضيحه لاحقًا.

وبداية مع إنجيل «متى»، حيث جاءت روايته تقول: إن المسيح عليه السلام حينما حكموا عليه بالصلب، استهزؤوا منه بإلباسه رداء قرمزيًّا، وإكليلًا من الشوك فوق رأسه، ومناداته بملك اليهود، وفور اقتياده نحو موضع الصلب كلفوا سمعان القيرواني بحمل الخشبة التي سيصلب عليها المسيح، وحينما صلبوه اقتسموا ثيابه، وجعلوا فوق رأسه لوحة مكتوب فيها «هذا يسوع ملك اليهود». ويروي «متى» أن المجتازين يحدقون عليه وهم يهزون رؤوسهم، وأن الشيوخ والكتبة يستهزؤون به. ويضيف «متى» أن في الساعة السادسة قد حلت ظلمة على الأرض لمدة ثلاث ساعات أي إلى الساعة التاسعة، وفي هذه الأثناء سيصرح المسيح

(١) انظر: يوسف الكلام، تاريخ وعقائد الكتاب المقدس بين إشكالية التقنين والتقديس، ص ص: ٦١-٦٢.

(٢) محمد بن بسيس بن مقبول السفياني، الأسس المنهجية لنقد الأديان، مركز التأصيل للدراسات والبحوث، جدة- السعودية، ط١، ١٤٣٧هـ/ ٢٠١٦م، ج٢، ص: ٤٩٨.

ويسلم الروح، وبموازاة ذلك انشق حجاب الهيكل إلى اثنين، وتزلزلت الأرض وانشقت الصخور، وتفتحت القبور، وقام الكثير من القديسين، واتجهوا نحو المدينة المقدسة ودخلوها أمام مرأى الناس، وقد شهد هذا الأمر قائد المائة وحراس جسد المسيح، ونساء مؤمنات كن قد تبعن المسيح من الجليل، بما في ذلك مريم المجدلية ومريم أم يعقوب ويوسي وأم ابني زبدي.[١]

أما رواية «مرقس» فهي رواية «متى» نفسها مع إضافات طفيفة، وهي على الشكل الآتي: أنه عليه السلام حينما حكم عليه بالصلب، استهزؤوا به، وكانوا يبصقون عليه ويسجدون له جاثين على ركبهم، وحينما حلت الظلمة وهو على الصليب صرخ بصوت عالٍ، وركض أحد الحاضرين نحوه وملأ إسفنجة بالخل وسقاه إياه بعد أن وضعها على القصبة.[٢]

وأما «لوقا» فقد وافق رواية «متى» في كل شيء تقريبًا، انفرد فقط بذكر أن جمهورًا من الشعب تبعوا السيد المسيح حينما اقتيد إلى موقع تنفيذ حكم الصلب، وكان من ضمن هذا الجمهور نساء يبكين ويلطمن. وانفرد أيضًا بذكر أن الجنود قدموا للمسيح الخل، وكذلك ذكر إجمالًا دون تحديد أن نسوة حضرن وشاهدن الواقعة معية جميع معارف السيد المسيح.[٣]

بينما رواية «يوحنا» تنفرد عن الروايات السابقة بأن السيد المسيح هو الذي حمل الخشبة التي سيصلب عليها، وأن مكان الصليب كان قريبًا من المدينة، وأن النساء اللواتي كن برفقته هن: أمه وأخت أمه مريم زوجة كلوبا، ومريم المجدلية بالإضافة إلى تلميذه، وأن هؤلاء هم الذين قدموا الخل للسيد المسيح بعد أن أخبرهم بأنه عطشان، وأن الجنود لم يكسروا ساقيه، وأن جنديًّا

(١) إنجيل متى، ٢٧: ٢٧- ٥٦.

(٢) إنجيل مرقس: ١٥: ١٧- ٤١.

(٣) إنجيل لوقا: ٢٣: ٣٦ - ٤٩.

طعن جنبه بحربة فخرج منه دمًا وماء. ولم يذكر «يوحنا» الظلمة التي حلت بالأرض، والزلزلة والتي وقعت، وشق حجاب الهيكل.[1]

فهذه الروايات لحدث الصلب، وإن كانت تعد ضمن الروايات التاريخية، لكن في ظل النقد التاريخي لهذا الحدث، وللوثيقة التي تضمنت هذا الحدث، تُعد ضعيفة ومضطربة، بل مختلقة لا أساس لها من الصحة، ولا يمكن تصور وقوعها، وإنما هي ادعاءات يرنو أصحابها من خلالها إضفاء نوع من المصداقية على دعوتهم. أو على الأقل -وبحسن النية- دونوا ما تلقفت آذانهم من غير تمحيص.

إن علماء ودراسي الأديان حينما أخضعوا نصوص الكتاب المقدس للنقد التاريخي، فإنهم قد أخضعوها للنقد الخارجي، الذي يدرس الظروف الخارجية والتاريخية المصاحبة للوثيقة أو النص. والنقد الداخلي الذي يدرس محتوى الوثيقة والمتن، من حيث سلامته من التحريف والتبديل والتغيير وصحة نسبته إلى قائله. وما إن فعلوا ذلك حتى استنتجوا أن هذه النصوص لا يُعرف كاتبها ولا ناقلها، ولا متى دونت بالتحديد، واتفقوا كلهم على أنها لا تعود إلى الفترات الزمنية التي يدعيها التقليد الكنسي، ولذا فكل ما تتضمنه هذه النصوص من روايات لأحداث غير صحيحة أو مشكوك في أمرها، ما لم يعضدها مصدر تاريخي خارجي معاصر لتلك الفترة، أو قريب منها.

وأمام هذا الوضع لجؤوا إلى النقد الداخلي لنصوص هذه الأسفار، فتأكدوا أيضًا ما استنتجوه من قبل، ولكن هذه المرة بدقة ووضوح. فإنجيل «متى» الذي يعد أول أسفار العهد الجديد، والذي يعد أيضًا أحب الأناجيل إلى الكنسية، وبناءً على نتائج الداخلي للنص وللغته، توصلوا إلى أنه «يعكس وضعًا لاهوتيًّا وكنسيًّا متطورًا للغاية بالنسبة لفترة سابقة له».[2] وكذلك إنجيل «مرقس» فاللغة التي كتب بها يونانية تنتمي إلى القرن الثاني الميلادي، حيث يكرر

(١) إنجيل يوحنا، ١٩: ١٦ - ٣٧.

(٢) عبد الرحمن جيرة، الإنجيليون الأربعة بين التقليد والنقد الحديث، دون ذكر اسم المطبعة، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥، ص: ٣٧.

كاتبه حرف العطف كثيرًا، كما يتجنب العبارات البليغة، ويستخدم اليونانية الدارجة».[1] وأما إنجيل «لوقا» وإن كان المسيحيون متفقين على أنه لم يكن من تلامذة المسيح، فإن تقليدهم لا يستند على نص مكتوب، في ادعائهم على نسبة الإنجيل إليه، بحكم كونه رفيقًا لبولس في رحلاته، ذلك أن هذا الاسم «لوقا» «لم يظهر إلا في أواخر القرن الثاني الميلادي، أي بعد ما يربو على قرن من الوقت المفترض كتابة الإنجيل فيه».[2] أما الإنجيل الرابع الذي هو «إنجيل يوحنا» فقد قصد كاتبه من ورائه التوفيق بين الدين والفلسفة اليونانية، في اللحظة التي وجد فيها المسيحيون أنفسهم في مواجهة هذه الفلسفة، وأيضًا بهدف أن يؤمن القارئ بأن المسيح هو ابن الإله، حيث إن الناس لم يكونوا قد آمنوا بذلك بعد.[3]

والمعلوم أن النتائج دائمًا ما تبنى على مقدماتها. وعليه فإن نتائج هذه الدراسة التي قام بها مؤرخو ودارسو الأديان الغربيون، أفضت بالضرورة إلى إنكار وجود السيد المسيح عيسى عليه السلام تاريخيًّا، بله الأحداث المرتبطة به، التي منها حدث الصلب. وهذا طبعًا مخالف لحقيقة الوحي القرآني، ولا نقوله أو نأخذ به نحن المسلمين. وإنما نكتفي فقط بنتائج بطلان الوثيقة التي هي الكتاب المقدس، الذي يتضمن حدث الصلب، كاستنتاج أساسي للنقد التاريخي الغربي للنص الديني المسيحي.. لأن المسيح عليه السلام حسب حقيقة الوحي الثابتة نبي مرسل إلى بني إسرائيل، قد بعث إليهم في زمان ومكان غير زمان ومكان العهد الجديد، وهو أمر باعث في الحقيقة إلى الاعتماد على الوحي القرآني مصدرًا أساسًا لإعادة دراسة شخصية المسيح وتاريخه والأحداث المرتبطة به، حيث إن القرآن ينفي عنه بكل التأكيد تعرضه للصلب. وهو ما يدفع بنا إلى القول بأن هذه الأحداث الإنجيلية قد تكون من قبيل المفتريات من قبل الأعداء (اليهود)، ذلك أنهم حينما فشلوا في التمكين منه وقتله، وبدلًا من تبرير هذا الفشل، عمدوا إلى توجيه

(١) المرجع السابق، ص: ٧٦.

(٢) المرجع السابق، ص: ١١٨.

(٣) انظر: المرجع السابق، ص ص: ١٤٤-١٤٥.

العامة إعلاميًّا إلى تصديق الأخبار الزائفة، ألا وهي صلبهم للمسيح وقتله، حتى أصبحت حقيقة عندهم لا تقبل الجدال، ومن بعد جاء الكتاب فدونوها على أنها أحداث تاريخية، فانفردوا بذلك بروايتها عن باقي المؤرخين المعاصرين، الذين جاؤوا من بعدهم.

✸ ثانيًا: المصادر التاريخية

من الأسباب التي جعلت الدارسين الغربيين يقتنعون بأن الأحداث التي رويت في الأناجيل، والتي من بينها الصلب، غير حقيقية، هي خلو المصادر التاريخية المعاصرة لفترة المسيح أو القريبة منها، من ذكر وإشارة إلى السيد المسيح عيسى عليه السلام، والتي من المفترض ألا تغفل عن ذكر مثل هذه الأحداث، لو بالفعل قد كان لها صدى.

ولعل أهم مصدر في هذا المجال يشار إليه بالبنان، هو تاريخ يوسيفوس فلافيوس اليهودي، «تاريخ حروب اليهود» history of the Jewish war، الذي يعد أقدم كتاب تاريخي يؤرخ للفترة التي يزعم المسيحيون أنها فترة المسيح عليه السلام، لم يشر إلى ولادة عيسى عليه السلام أو صلبه، وكل ما قيل حوله وحول معجزاته من قبيل الظلام الذي غطى جميع الأرض لمدة ثلاث ساعات في منتصف النهار، وقيام القديسين من القبور في أثناء الصلب، وغيرها... في حين تحدث في كل التفاصيل الكبرى التي حدثت زمن هيرود ملك اليهود، وعن كل المصائب التي حدثت للملك «هيرود» نفسه. فالمؤرخ لم يورد عن تاريخ المسيح والمسيحيين سوى بعض الإشارات، عدها النقاد غير صحيحة ومدسوسة.[1]

ويقول ابن قرناس في كتابه «مسيحية بولس وقسطنطين» إن كل المؤرخين والكتاب الذين عاشوا في فلسطين إبان القرن الميلادي الأول أهملوا ذكر السيد المسيح عليه السلام. ومن

(١) ول وايريل ديورانت، قصة الحضارة (قيصر والمسيح أو الحضارة الرومانية)، ترجمة: محمد بدران، دار الجيل، د.ط، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، مج ١١، ص: ٢٠٥.

أولئك الذين عاشوا في هذه الفترة: المؤرخ اليهودي السالف الذكر يوسيفوس فلافيوس، والكاتب اليوناني الواسع الاطلاع «بلوتارخ» (٤٠م - ١٢٠م)، والمؤرخ المشهور فيلون الإسكندري المتوفى عام ٥٠م. ومن المؤرخين الرومانيين يوجد الكاتب والعالم بلينوس الأكبر (٢٣-٧٩)، الذي أمضى خمس سنوات في فلسطين من عام ٦٥م إلى ٧٠ بعد الميلاد، ومع ذلك فلم يكتب كلمة واحدة عن السيد المسيح ولا عن تلك الديانة التي تكونت من بعده.

هذا بالإضافة إلى المؤرخين الآخرين مثل: «تاتسيت» (٥٤م-١١٩م) و«بلينوس الأصغر» (٦٠م-١١٣م) و«سويتون» المولود عام ٨٥م. فضلًا عن الفلاسفة مثل: «سينيكا» المتوفى عام ٦٥م، والشعراء ك«لوكانوس» (٣٩م-٦٥م) و«بيرس» (٣٤م- ٦٢م) و«يوفينال» (٤٥م-١٣٠م).[١]

فلو كان حدث الصلب واقعًا كما تروي الأناجيل لما غفل هؤلاء المؤرخون عن ذكره، خاصة أن الحدث سياسي محض في ظاهرة كما تروي الأناجيل، لأن المحاكمة تمت بصيغة سياسية وليست دينية، وحتى الحكم الذي أنطق به بيلاطس كان كذلك، بدعوى أنه متمرد ومحرض على الثورة ضد السلطة الرومانية، لادعائه أنه المسيح ملك اليهود، وحتى في لحظة صلبه ثمة إشارتان تشيران إلى أن (المسيح) عوقب صلبًا على الادعاء السياسي، كما أقنع اليهود السلطات الرومانية، والإشارتان هنا هما: الإكليل من الشوك الذي وضع على رأسه بديلًا من التاج، واللوحة التي كتبت عليها عبارة باللغة العبرية واليونانية والرومانية «هذا ملك اليهود» تحقيرًا له ليس إلا. فالأحداث مثل هذا تتطلب الحضور الجماهيري الغفير في أثناء تنفيذ الحكم، حتى تكون عبرة، وهي سياسة متبعة من قبل الحكومات المركزية على مر التاريخ.

والملاحظ أيضًا في الرواية الإنجيلية أن كتاب الأناجيل الإزائية أو المتشابهة التي يقصد بها (متى ومرقس ولوقا) أضافوا في روايتهم لحدث الصلب، أحداثًا صاحبت واقعة الصلب وهي حدث

(١) ابن قرناس، مسيحية بولس وقسطنطين، منشورات الجمل، كولونيا ألمانيا-بغداد، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨، ص:٢٦.

كسوف الشمس الذي عبر عنه بظلام الليل، وحدث الزلزال، بالإضافة إلى شق حجاب الهيكل، كنوع من الغضب الإلهي على هذا الفعل الشنيع الذي أقدم عليه الإنسان في حق السيد المسيح، أو شيء من هذا القبيل. وهي إضافة نرى أنها لا تعد سوى تيقظ الكتاب للنقد الذي سيوجه لرواياتهم لحدث الصلب، وحتى تكون هذه الرواية مقبولة عند الناس، ارتأوا أن يدرجوها على كونها معجزة خارقة، وحدث ليس كالأحداث العادية، وإنما هو أمر جلل.

ويوجد من المؤرخين الذين كتبوا باليونانية قديمًا من يفند هذا الادعاء، منهم «المؤرخ ثالوس» الذي يرى أن هذه الظلمة هي كسوف للشمس، وهو ما يبدو أمرًا خاطئًا (حسب رأي ثالوس)؛ لأن الصلب وقع في عيد الفصح اليهودي، وهو عيد يحدث دائمًا في فترة القمر المكتمل، فإذًا من المستحيل أن يقع كسوف الشمس في فترة القمر المكتمل.[1] وهو ما يفنده التقليديون المسيحيون بدعوى أن هذه الأحداث المصاحبة لصلب السيد المسيح، إنما هي أحداث دينية، وبأنها معجزة إلهية.

✸ ثالثًا: شرط قبول رواية المعجزات

حتى نفرق بين المعجزات والكرامات والأعمال السحرية الخارقة، وضع علماء المسلمون قواعد لقبول المعجزات وتمييزها عن غيرها، كما وضعوا لها تعريفًا جامعًا، يميزها من الكرامات، والشعوذات التي يعتقد العامة أنها قد تندرج ضمن حقل المعجزات.

ويحضرنا هنا تعريف التفتازاني للمعجزة في شرحه للأربعين النووية، حيث يقول: «هي الأمر الخارق للعادة، الظاهر من نفس خيرة الداعي إلى السعادة، المقرون بالتحدي مع عدم المعارض».[2]

(١) انظر: روبيرت فان فورست، يسوع المسيح خارج العهد الجديد، مدخل إلى الأدلة القديمة، ترجمة: وسيم حسن عبده، مراجعة: منذر الحايك، دار الصفحات للنشر والتوزيع، دمشق- سوريا، ط ١، ٢٠١٢م، ص: ٣٥.

(٢) سعد الدين مسعود بن عمر بن عبد الله، العلام، شرح التفتازاني على الأحاديث الأربعين النووية، تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل، منشورات: علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، د.ط، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤، ص: ٣٩.

أي أنها حدث يجري على يد الرسول أو النبي، لهدف إقامة الحجة على المنكرين وتحديهم وإخراسهم، وطمأنة المؤمنين وازدياد إيمانهم.

وبما أن المعجزة حدث، فإنها بالضرورة حدث تاريخي، تجري عليها شروط قبول الأحداث التاريخية، بل أكثر صرامة ودقة من الأحداث الأخرى، لكونها حدثًا دينيًّا، وليس حدثًا طبيعيًّا، حتى تقطع السبل أمام ممتهني الدجل والشعوذة وادعاء النبوءات. إذًا فشرط نقل ورواية المعجزة هو التواتر، بل نقل الكافة عن الكافة الذي يوجب العلم بالضرورة. وفي هذا الصدد يقول الإمام ابن حزم رحمه الله: «فكل معجزة لم تنقل نقلًا يوجب العلم الضروري كافة عن كافة حتى تبلغ إلى المشاهدة فالحجة لا تقوم بها على أحد، ولا يعجز عن توليدها من لا تقوى له».[1] وقول الإمام هذا يعد قاعدة أساسية لقبول رواية المعجزة والخوارق، ذلك أن المعجزة في جوهرها ومن حيث كونها حدثًا، فإنها لا تحتاج إلى التفسير والتحقيق بقدر ما تحتاج إلى الظهور.

وعلى هذا المنوال يمكن نقد حدث الصلب والأحداث المصاحبة له، فنقول: لو كان هذا الحدث معجزة كما يظن التقليديون ويدعونه، فلِمَ إذًا لَمْ يكن ذائع الصيت داخل الأراضي الفلسطينية وخارجها؟، ولِمَ لمْ تروِه الكتب التاريخية والأدبية غير المسيحية، كما المسيحية نفسها؟، وأيضًا لِمَ اقتصر في رواية هذه الأحداث فقط على أربع شخصيات فقط، وهم كتاب الأناجيل، وإذا كانت هذه الأحداث حقيقة فلِمَ الاختلاف في الرواية بين هؤلاء الكتاب، تارة بالتعديل وتارة بالحذف؟، وأيضًا كيف لأمة تأخذ دينها (بما في ذلك رواية حدث الصلب) عن طريق رواية خمسة أشخاص فقط وهم: بطرس، متى، يوحنا، يعقوب ويهوذا، كما يقول ابن حزم رحمه الله، وهم في فترة زمنية عسيرة، يفر المرء بدينه ويخفيه، ولا يظهره خشية الهلاك.[2] كل هذه الأسئلة تؤدي بنا إلى القول بأن رواية الأناجيل فيما يخص حدث الصلب رواية لا يقبلها العقل التاريخي، وأن حدث الكسوف هو حدث طبيعي، من الظواهر الطبيعية،

(١) ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، تحقيق: أحمد السيد سيد أحمد علي، المكتبة التوفيقية، القاهرة-مصر، د.ط، ٢٠٠٣م، ج١، ص: ٢٥٣.

(٢) المرجع السابق، ج١، ص: ٢٥١.

المرتبطة بحركة الشمس والقمر، لا يدل حدوثها على شيء هام، من قبيل موت أو ولادة عظيم، كما كانت الشعوب القديمة تعتقد.

✸ رابعاً: نقد رواية عثور «هيلانة» على خشبة الصلب

لم يكتفِ المسيحيون التقليديون بالروايات الإنجيلية فيما يخص حدث الصلب، بل عمدوا إلى اختلاق قصص يدعمون بها أطروحتهم الدينية والعقائدية لحدث صلب المسيح، وإضفاء عليها المصداقية التاريخية، وهذه القصة هي: قصة عثور هيلانة أم قسطنطين على الخشبة التي صلب عليها المسيح عليه السلام، والشوك الذي جعل على رأسه، والمسامر التي ضربت في يديه، وحتى الدم الذي طار من جنبه. وقد كان هذا بعد رفع السيد المسيح عيسى عليه السلام بمدة ثلاثمائة سنة. كما يرويها الإمام ابن حزم رحمه الله في كتابه الفصل.[1]

وقد انتقد ابن حزم رحمه الله هذا الحدث، وعدّه قصة مختلقة، لا تستند على دليل تاريخي مؤكد. فهو يرى -رحمه الله- أنه من الصعب الحفاظ على الخشبة التي صلب عليها المسيح، في الوقت الذي كان أعداء المسيح عليه السلام لا يأبهون به ولا يلتفتون إلى أمره، ويمنعون الأصحاب والتلاميذ من الاقتراب منه، بل ويلاحقونهم أينما حلوا وارتحلوا طيلة مدة ثلاثمائة سنة، هذا بالإضافة إلى كون المدينة كانت خربة مقفرة لا أنيس فيها، لمدة مائتي عام، وهي مدة كافية لدحض وتفنيد هذه القصة. يقول الإمام ابن حزم: «النصارى الأوائل كلهم مقتولون ومطرودون حيث وجدوا، والمدينة خربة أزيد من مائتي عام لا أنيس فيها»، ويتساءل: «أين بقي أثر الدم والمسامير والشوك والخشبة تلك المدة العظيمة في البلاد الخالية العظيمة؟».[2] وهو تساؤل حزمي يدفعنا إلى الجزم بكون القصة في حقيقة الأمر لا تعد سوى قصة مختلقة لإضفاء القداسة على حادث الصلب، لأن الدم بكل بساطة لا يمكن أن يصمد لهذه المدة.

(١) المرجع السابق، ج١، ص: ٣٢٣.

(٢) المرجع السابق، ج١، ص: ٣٢٣.

الخلاصة

في نهاية هذه الورقة نخلص إلى ما يلي:

١. انفراد الأناجيل الأربعة من بين سائر أسفار العهد الجديد برواية ونقل أحداث محاكمة وصلب السيد المسيح عيسى عليه السلام.

٢. خلو المصادر والمدونات التاريخية المعاصرة والقريبة من فلسطين من ذكر ولو بالإشارة إلى شخصية عيسى عليه السلام، إلى الأحداث المرتبطة به، التي من بينها حدث الصلب.

٣. كون هذه المدونات والمصادر التاريخية لم تشر إلى النبي عيسى عليه السلام، لا يعني إنكار وجوده تاريخيًّا كما ذهب إلى ذلك ثلة من علماء الأديان المقارنة الغربيين، بل نقول بأنه عليه السلام قد بعث إلى بني إسرائيل في زمان ومكان غير زمان ومكان المشار إليهما في أسفار العهد الجديد، حيث إنه ثمة صنف من علماء المسلمين لا يرون أنه عليه السلام بعث بأرض فلسطين.

٤. إذا كان حدث الصلب واقعًا كما يعتقد المسيحيون لكان يعلمه القاصي والداني، ولبلغت شهرته الآفاق، ولانتشر خبره في مختلف أرجاء العالم القديم، أو على الأقل أرجاء الإمبراطورية الرومانية، ولدونه المؤرخون المؤمنون منهم والكافرون به، وذلك لأهميته من جهتين: من جهة أنه نبي مرسل أو ابن إله مرسل، ومن

جهة ثانية أنه معارض سياسي للسلطة الرومانية وحكم محاكمة سياسية.

٥. إذا كان أي حدث تاريخي يندرج ضمن المعجزات، فشرط قبول روايته هو أن ترويه الكافة عن الكافة حتى يبلغ إلى المشاهدة.

٦. أي قصص لها ارتباط بحدث الصلب، فهي مجرد محاولة إضفاء المصداقية التاريخية والدينية على الحدث نفسه.

هذا والله أعلى وأعلم.

مصادر ومراجع الدراسة

- الإنجيل، العهد الجديد، الترجمة العربية المشتركة من اللغة الأصلية، جمعية الكتاب المقدس في لبنان، النشرة الرابعة ١٩٩٢م، ط١، ١٩٩٧م.
- ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، تحقيق: أحمد السيد سيد أحمد علي، المكتبة التوفيقية، القاهرة-مصر، د.ط، ٢٠٠٣م.
- ابن قرناس، مسيحية بولس وقسطنطين، منشورات الجمل، كولونيا ألمانيا-بغداد، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨.
- روبيرت فان فورست، يسوع المسيح خارج العهد الجديد، مدخل إلى الأدلة القديمة، ترجمة: وسيم حسن عبده، مراجعة: منذر الحايك، دار الصفحات للنشر والتوزيع، دمشق- سوريا، ط ١، ٢٠١٢م.
- سعد الدين مسعود بن عمر بن عبد الله، العلام، شرح التفتازاني على الأحاديث الأربعين النووية، تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل، منشورات: علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، د.ط، ١٤٢٥ه/ ٢٠٠٤.
- عبد الرحمن بدوي، النقد التاريخي، «المدخل إلى الدراسات التاريخية»، لأنجلوا وسينوبوس، الناشر: وكالة المطبوعات، الكويت، ط٤، ١٩٨١.

- عبد الرحمن جيرة، الإنجيليون الأربعة بين التقليد والنقد الحديث، دون ذكر اسم المطبعة، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥.
- محمد بن بسيس بن مقبول السفياني، الأسس المنهجية لنقد الأديان، مركز التأصيل للدراسات والبحوث، جدة- السعودية، ط١، ١٤٣٧هـ/٢٠١٦م.
- محمود قاسم، المنطق الحديث ومناهج البحث، مكتبة الأنجلو المصرية، ط ٢، تاريخ كتابة المقدمة: ١٩٥٣.
- ول وايريل ديورانت، قصة الحضارة (قيصر والمسيح أو الحضارة الرومانية)، ترجمة: محمد يدران، دار الجيل، د.ط، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، مج ١١.
- يوسف الكلام، تاريخ وعقائد الكتاب المقدس بين إشكالية التقنين والتقديس، دار الصفحات، دمشق سورية، ط١، ٢٠٠٩.